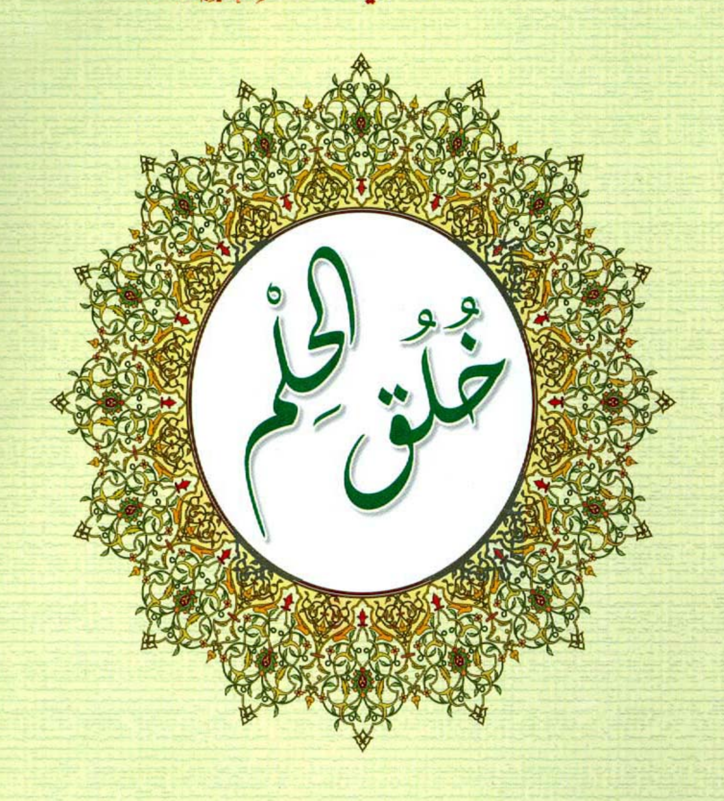
سلسلة أخلاق النبي محمد ﷺ (١)



لفضيلة الشيخ

د/ محمد الدبيسي

حفظه الله تعالى وعفا عنه

الطبعة الثانية

رجب ١٤٣٤ هـ الموافق يونيو ٢٠١٣ م

فضيلة الشيخ د/ محمد الدبيسي حفظه الله تعالى.

للتواصل: debiessy@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،وبعد..

فهذا تفريغٌ للخطبة الأُولَى من سلسلة خطب «أخلاق النبيّ محمد ﷺ» **لفضيلة الشيخ د/ محمد الدبيسي** حفظه الله تعالى، قُمنا بتفريغها رغبةً مِنَّا في تيسير وصول المعاني العالية والمواعظ الإيمانيةِ التي احتوتْها هذه الخطبةُ القيّمة لإخواننا طلبة العلم.

وهذه السلسلة الطيبة المميزة تتكون من إحدَى عشر خطبة شرح فيها فضيلةُ الشيخ حفظه الله عدَّةَ أخلاقٍ مختارة من خُلق النبي المصطفى ﷺ لتُناسبَ وتعالجَ حالَ المؤمنين وما فرّطوا فيه من خلق النبوة، وليكون هذا الخلق محلَّ التأسِّي من قِبل المؤمنين في كل زمان ومكان[1] وليعود تكافل المؤمنين وتوادهم فتتنزل الرحمة ويرتفع البلاء - خاصة عندما يتحمل المسلمون جميعهم المسؤلية المنوطة بهم في التمسك بالدين ونشره

للاستماع لهذه السلسلة الطيبة: (١)
http://debiessy.com/general/akhlak.htm

ورفع رايته والدفع عن أمتهم واستمطار النصر من الله تعالى. ولا يكون ذلك إلا أن يتحققوا بأخلاق النبي ﷺ، أخلاق النصر والرفعة والتمكين.

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الرسالة مؤلِفَها والناظرَ فيها وكلَّ مَنْ شارك في نشرها ابتغاء وجه الله تعالى، كما نسأله جل وعلا أن يمن على فضيلة الشيخ حفظه الله تعالى، بتمام العافية وموفور البركة.

مسجد الهدي المحمدي- طور سيناء- القاهرة

تمهيد

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد،،،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي

وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

ذكرنا فيما سبق من قضايا الاحتفاء بمجيء النبي ﷺ إلى هذا العالم، ليكون سببَ سعادة الثقلين في الدنيا والآخرة، ما يتعلق به ﷺ في القرآن الكريم من مدح الله تعالى له وثناء الله جلَّ وعلا عليه؛ وهذا القسم الأول. ثم كان القسم الثاني في التأْيِيْدات الإلهية للنبي ﷺ، وكان الثالث في شيءٍ من حقوقه: محبته، وطاعته، وتوقيره، واحترامه، وتعزيزه، وإجلاله ﷺ وآثارِ هذه الحقوق التي ينبغي أن تظهر على المؤمن في مخاطبته وفي التحدث إليه

وفي سماع كلامه واتباع سنته والتزام هديه، إلى غير ذلك من مظاهر التأسي به ﷺ.

ونستأنف الكلام فيما لم نتحدث فيه من قبل: وهو المتعلق بأخلاقه وعباداته التي يجب أن يأتسي بها أهلُ الإيمان، بأن يكون النبيُّ ﷺ هو أسوتَهم وقدوتهم إلى الله تبارك وتعالى، فإنه لا يجد حلاوةَ الإيمان مَنْ لم يرَ نفسه في ملْكِ النبي ﷺ، فلا يخرج عن ملكه في شيء، كما قال: **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ**

وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»[1]، فلا يجد المرءُ حلاوةَ الإيمان إلا أن يكونَ النبيُّ ﷺ هو الحاكم عليه في تصرفاته وأقواله وأفعاله، وفي ظاهره وباطنه، واعتقاداته وعباداته وسلوكه، وكل ما يتعلق بحاله ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

(١) أخرجه الإمامان البخاريُّ (١٦) ومسلمٌ (٦٧) في صحيحَيْهما من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا ، وتمام لفظ الحديث عند الإمام مسلم للفائدة: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

﴿**ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢]، ولا يكون ذلك إلا باتباع النبي ﷺ ومحبته.

وخلق اليوم جزء واحد من أخلاقه ﷺ التي نحتاج إليها نستعيد به ما بعدنا عنه من أخلاق النبي ﷺ وهو خلق: « **الحِلم والعفو والصفح والتحمُّل**» في أحواله الْمُشرَّفةِ ﷺ .

وانظر إلى هذا الخُلق وانظر إلى أخلاقنا، لترى الفارق الشاسع بين ما نحن فيه وما ينبغي أن نكون عليه من أخلاق النبي ﷺ، ليجاهد الناس أنفسَهم في أيام على التخلق بأخلاقه، ليتصفوا بصفاته؛ فإنه لن يستطيع أحدٌ

بين يومٍ وليلةٍ التخلق بهذه الأخلاق أو بخلقٍ منها، **وإنما بالمجاهدة** وهي: أن يضع الناسُ نصب أعينهم النبيَّ ﷺ أُسْوَةً وقُدوةً، ثم يحاولوا التشبه بصفاته، مجاهدين أنفسهم على أن تكون لهم طبيعة وسجية، فيكون همهم الوصول لذلك.

فإنهم كلما وصلوا إلى خلق من أخلاق النبي ﷺ إذا بهم قد أخذوا بحظهم من صفات الله تعالى؛ **إذ أعظم أخذ بحظه من صفاتُ الله تبارك وتعالى هو النبيُّ ﷺ**.. إذْ ما أمر اللهُ تعالى بأمرٍ أو بخُلُقٍ أو بصفةٍ أو بعملٍ إلا وكان النبيُّ ﷺ المقدَّمَ فيها والرئيسَ فيها صلوات الله وسلامه

عليه، إذ لا يكون قدوةً للبشر أجمعين إلا أن يكون على أحسن الأخلاق المقرِّبة لله جل وعلا والتي هي من صفاته تعالى التي أمر بها عباده.

۞۞۞

أولًا: معنى الحِلْم

والحِلْم: هو التَّعَقُّل، والأناةُ، والتريثُ، وعدم العَجَلة في العقوبة لمن أساء إليه أو لمن بَدَرَ منه في حقه شيءٌ، وعدمُ السَّفَهِ والطَّيْش في تصرفاته ، فالحليم يصيبه الثبات والوقار عندما تأتي أسبابُ الغضب وأسباب معاجلة العقوبة، فلا يغضبُ ولا يعاجل الناسَ بالعقوبة،

بل يتريث؛ لا يرد الشَّتيمةَ بالشتيمة، ولا التطاولَ بالتطاول، ولا السخريةَ بالسخرية، ولا قَطْعَ الرحمِ بقطعِ الرحم... ولا غير ذلك مما سنشير إلى شيء من تفاصيله.



ثانيًا: أمثلةٌ من حلْم النبي ﷺ

وسنضرب بعض الأمثلة سريعًا حتى يكون كلٌّ على بيِّنَةٍ من أمْره وكذلك على بينة من أخلاقه، تلك الأخلاق السيئة التي نحياها اليوم والتي لا علاقة لها بخلق النبي ﷺ !

المثلُ الأول: حِلْمُه ﷺ مع الأعرابي

وذاك المَثلُ مشهورٌ تعرفه الناس ، فعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «**كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً. نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ الله ﷺ وَقَدْ**

أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: «يَا مُحَمَّدُ! مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ». فَالتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ! »[1]. وتأمَّلْ في الحديث كيف جذب ذلك الأعرابيُّ النبيَّ ﷺ من ردائه - وكان رداؤه ﷺ غليظًا فأثَّر في عنقه الشريف صلى الله عليه وآله

---

(١) رواه بنحوه الإمامُ البخاري في صحيحه (٥٨٠٩)، والإمامُ مسلم (١٠٧٥) في صحيحه، وفي روايةٍ أخرى عند مسلم قَالَ: «ثُمَ جَبَذَهُ إِلَيْهِ جَبْذَةً رَجَعَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فِي نَحْرِ الأَعْرَابِيّ». وَفِي رواية أخرى عنده أيضًا: «فَجَاذَبَهُ حَتَّى انْشَقَّ البُرْدُ، وَحَتَّى بَقِيَتْ حَاشِيَتُهُ فِي عُنُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ». وقوله «جَبَذَه» أي: جذَبه، يعني: مدَّه نحوه.

وسلم- فلم يَزِدِ النبيُّ صلوات الله وسلامه عليه على أن تَبَسَّم وأعطاه ﷺ ! وفي روايةٍ - إنْ صحتْ[1]- قال له ﷺ : « **لاَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، لاَ أَحْمِلُ لَكَ حَتَّى تَقِيدَنِى مِنْ جَبْذَتِكَ الَّتِى جَبذْتَنِى** » فكأنه صلى الله عليه وسلم يقول: نعم. أُعطيكَ من مال الله الذي ليس مالي ولا مال أبي، فالمَالُ مَالُ اللهِ، «**وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ**» ، ولكن: هل يُقْتَصُّ

(١) أخرج هذه الرواية التي طُلِب فيها القودُ من الأعرابيِّ أبو داود (٤٧٧٥) وسكت عنها، وبنحوها النسائيُّ (٤٤٧٦)، وفي سندهما مُحَمَّدُ بْنِ هِلَالٍ، قال في حقِّه ابنُ مفلح في الآداب الشرعية: (وَثَّقَهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِمَشْهُورٍ) اهـ، لذلك صُدِّرت الرواية أعلاه بقول فضيلة الشيخ: "إنْ صحّتْ".

منك؟ يعني: أأقتص منك كما فعلتَ بي؟ فقال الأعرابي: «**وَاللهِ لاَ أَقِيدُكَهَا**»، ومع ذلك ضحك رسول الله ﷺ وأمر له بعطاء، لماذا؟ لأنّه ﷺ: « **لاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ** »[1]! صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) هذه اللفظة أخرجها البخاري (٢١٢٥) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما موقوفًا عليه، وتمام نص الحديث للفائدة: عن عطاء بن يسار قال: « لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رضي الله عنهما - قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ في التَّوْرَاةِ. قَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ في التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ في الْقُرْآنِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ وَلاَ سَخَّابٍ في الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حتى يُقِيمَ بِهِ

ترى لو فُعِلَ مثلُ ذلك في أحدٍ منّا – نحن المساكين الذين ليس لهم شيء يُذْكَر لا في الدنيا ولا في الآخرة – لقال: «لن أعطيك شيئًا، وسأفعل بك وبأبيك»! ولن تنتهي هذه المسألة على خير في يومها، بل تنتهي إلى ما تعلمون من تلك الأخلاق السيئة والعواقب الوخيمة التي لا يتخيل المرءُ أن تصل إليها !!

المدخل الذي ينبغي لأهل الإيمان تعلمه: أن النبي ﷺ كان لا يُكافئ السيئةَ بالسيئة؛ إذ لا يفعل ذلك

الْمِلَّـةَ الْعَوْجَـاءَ؛ بِـأَنْ يَقُولُـوا لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ، وَيَفْـتَحُ بِهَـا أَعْيُنًـا عُمْيًـا، وَآذَانًـا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»

صاحب الخلُق العظيم! كيف ينزل إلى مستوى المُسيئين المقصرِّين المتلوّثين الشتَّامين المتطاولين الساخرين؟!... كيف ينزل إلى مستواهم وهو النبي ﷺ الذي قد أرسل لهدايتهم، وأتى لإرشادهم، وأتى لتعليمهم، وللأخذ بأيديهم إلى أسباب نجاتهم؟ كيف يتخلق بهذه الأخلاق وهو الرحيمُ بهم؛ الرءوفُ بهم؛ الذي يأخذ بحُجَزِهم عن النار وهم يَتَفَلَّتُون منه كما قال أبو هريرة رضي الله عنه : قَالَ رَسُولُ اللهَّ -صلى الله عليه وسلم- : « **مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِى فِى النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ،**

وَيَغْلِبْنَهُ، فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا! قَالَ فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ: أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ: "هَلُمَّ عَنِ النَّارِ.. هَلُمَّ عَنِ النَّارِ.." فَتَغْلِبُونِي؛ تَقَحَّمُونَ فِيهَا! ». (١)

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) في صحيحيهما، وفي رواية لمسلم (٢٢٨٥) : « .. **وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي** » . لغة الحديث: «بِحُجَزِكُمْ»: «الحُجَزُ» جمع حُجْزَة؛ وَهِيَ مَعْقَدُ الْإِزَارِ. «تَقَحَّمُونَ»: أي تَقْتَحِمُونَ فيها. وفي هذا المَثَلِ شبّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم تساقُطَ الجهلةَ والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة وحرصِهم على الوقوع فيها - معَ منعِه لهم! - بتساقُط الفراش في نار الدنيا؛ لهواه وضعف تمييزه وعدم درايته بحرّ النار وهيبها، ولو علمَ لم يدخلْها، بل ظن أن ضوء النار يريحه من ظلام الليل؛ فكذا العاصي :يظن أن

فيجب أن يكون أتباعُه ﷺ لا حَظَّ لأنفسهم في معاملتهم بل هي كلها لله تعالى، فلا يغضبون لأنفسهم ولا يثأرون لها؛ لذلك قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]، ولم يقل : «وإنْ شتموكَ فاشتُمهم.. وإن قاطعوك فقاطعهم.. وإن سخِروا منك فاسخَرْ منهم.. وإن حرموك فاحرِمهم.. وإن ضربوك فاضربهم...» ! لم تكن

المعاصي تُريحه؛ فيتعجلُ لذَّةَ ساعةٍ بذُلِّ الأبد ، انظر - بتصرف: فيض القدير لمحمد عبد الرؤوف المناوي رحمه الله تعالى (ت: ١٠٢٩ أو ١٠٣٠هـ.)

هذه دعوةً إذن ولم تكن هذه أخلاقًا، فهل جاء النبي ﷺ لنتعارك ولنتشاتم ولنتقاطع ولنتدابر ولنتباغض؟!!

والملاحظة المهمة أنه مع قدرة النبي ﷺ وتمكُّنه من ردَّ السيئة بالسيئة – إذ الحِلم لا يكون إلا مع القدرة– لم يكن ذلك من خلقه صلوات الله وسلامه عليه؛ لذلك تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ فَيَنْتَقِمَ للهِ عَزَّ

وَجَلَّ»[1]. فكان لا يغضب لنفسه ﷺ ، فإذا انتُهِك شيءٌ من حُرمات الله تعالى لم يقم لغضبه ﷺ شيءٌ. وقارن ما يفعله المؤمنون اليوم مع ذلك- دَعْكَ مما يفعل غيرُهم - مِن خروجهم، كما يقولون، عن أعصابهم وعن أطوارهم، وأن يردوا السيئة بالسيئة.

فالمؤمن ينبغي ألا يكون همُّه هذه النفسَ الأمَّارة بالسوء التي تدعوه إلى أن يشتُم وأن يقابل السيئة بالسيئة. متى يتفرغ قلبه إذًا للآخرة؟! وهذا الشخصُ الذي قد أساء إليك؛ متى يكون همُّكَ أن يكون صالحًا؟ ومتى

---

(1) أخرجه الإمام مسلم (٢٣٢٨) في صحيحه.

يكون همُّك أن تُعَلِّمَه الآخرة؟ ومتى يكون همك أن تأخذ بيده إلى الله تعالى؟

والناس اليوم – إلا من رحم الله-: من لم يتمكن من مقابلة السيئة بالسيئة يحزن كل الحزن ، وينتظر اللحظة التي ينتقم فيها ويتشفَّى فيها ويرى فيها يومًا سيئًا لإخوانه الذين آذَوْه، وإذا بقلبه قد امتلأ بالتشفي، فأَنَّى يكون هذا القلبُ قلبًا سليمًا ينفع العبد عند الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].



المثل الثاني: حِلمُه ﷺ مع المنافقين

وإن كانت هذه معاملته ﷺ في مال الله الذي ليس مالَه، كان كذلك ﷺ في معاملته مع المسلمين، بل وكان في معاملته مع المنافقين كذلك.

فهذا عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين في المدينة، وكانوا يَعُدُّونه لِتَنْصِيبه مَلِكًا عليهم قبل مجيء النبي ﷺ إلى المدينة، فلما جاء النبي صلوات الله وسلامه عليه انتهى هذا العهدُ ولم يؤمن عبدُ الله بن أُبي – وإن كان يُظهِرُ الإسلام – ولكن كان رأسَ المنافقين، وكان يكيد

للنبي ﷺ جهرةً وسرًّا، وكان ابنه عبدُ الله بن عبدِ الله ﷺ من شرفاء الصحابة وأحاسنهم.

وقد نزل في عبد الله بن أُبي قوله تعالى: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. حيث كانوا في غزوةٍ وتلاحَى أنصاريٌّ مع مهاجريٍّ، ونادى هذا على حَيِّه وهذا على حَيِّه، وقال عبد الله بن أبي: «ما مَثَلُنا ومَثَلُ محمدٍ إلا كما قال القائل: «سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ. لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ»؛ يقولُ ابن أُبيّ: «الأعزّ» على نَفْسِه، و«الأذلّ» على أعزّ خَلْق الله ﷺ! -فيقول عمر ﷺ: «دَعْنِي أضربُ عنقه»، أو

«لِيضربْ عنقَه سعدُ بن عبادة أو واحد من قبيلته».
فيقول النبي ﷺ: « **دَعْهُ؛ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ** »[1]!!

---

(١) هذه القصة أخرجها البخاري (٤٩٠٧) ومسلمٌ (٢٥٨٤) بنحوها دون قوله "سمِّن كلبك يأكلك" فهي من مرسل قتادة كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح، ونصّ رواية الحديث كاملة عند البخاري: قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ - رضى الله عنهما كُنَّا فِى غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِىُّ: يَا لَلأَنْصَارِ ! وَقَالَ الْمُهَاجِرِىُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ! فَسَمَّعَهَا اللَّهُ رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**مَا هَذَا؟!** » . فَقَالُوا كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِىُّ: يَا لَلأَنْصَارِ . وَقَالَ الْمُهَاجِرِىُّ: يَالَلْمُهَاجِرِينَ . فَقَالَ النَّبِىُّ صلى الله

وكان النبيُّ ﷺ قادرًا على إنهاء حياةُ ذلك المنافقِ، وهذا حقه ﷺ شرعًا وعقلًا وواقعًا بسبب كلمةٍ واحدةٍ من هذه الكلمات ، ولكن النبي ﷺ كان أحلمَ من ذلك.. وأكرمَ من ذلك.. وأجلَّ من ذلك.

عليه وسلم « **دَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ** » . قَالَ جَابِرٌ وَكَانَتِ الأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَكْثَرَ ، ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بَعْدُ ، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ: أَوَقَدْ فَعَلُوا ! وَاللهِ! لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ . فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضى الله عنه: دَعْنِي يَا رَسُولَ الله أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ؟. قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: « **دَعْهُ؛ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ** ».

ولم تقف إساءة عبد الله بن أُبيّ عند ذلك، بل كان يُسيء أكثرَ من ذلك إلى النبي ويصبر ﷺ عليه. كان يكون في مجلسٍ ويأتي النبي ﷺ راكبًا حمارَه من تواضعه صلوات الله وسلامه عليه، فقال له عبد الله بن أُبيّ: « أَخِّر عنا نَتْن حمارك»[1]، يقول ذلك للنبي ﷺ !!

---

(١) هذه القصة أخرجها البخاري (٢٦٩١) ومسلمٌ (١٧٩٩) بنحوها ، ونصّ رواية الحديث كاملة عند البخاري: أَنَّ أَنَساً – رضى الله عنه– قَالَ: «قِيلَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَىٍّ؟ . فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَرَكِبَ حِمَاراً ، فَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ ، وَهْىَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ ، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: « إِلَيْكَ عَنِّي ، وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ

انظر! لو قيل لأحدنا «أخِّر عنا نَتَنَ حمارك أيها الذليل» أو غير ذلك مما يقال! لم يكن لِيَسْكُتَ أحدٌ، وما

حِمَارِكَ ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَطْيَبُ رِيحاً مِنْكَ ! فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَشَتَمَا ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ ، فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالأَيْدِى وَالنِّعَالِ ، فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ {**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**}».

قال الحافظ في الفتح: «أَرْضٌ سَبِخَةٌ » أَيْ ذَات سِبَاخ ، وَهِيَ الْأَرْض الَّتِي لَا تُنْبِت ، وَكَانَتْ تِلْكَ صِفَة الْأَرْض الَّتِي مَرَّ بِهَا صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ ذَاكَ ، وَذَكَرَ ذَلِكَ لِلتَّوْطِئَةِ لِقَوْلِ عَبْد اللَّه بْن أُبَيّ إِذْ تَأَذَّى بِالْغُبَارِ .

كانت تتركه نفسُه ليسكت، وإلا حدثتْه نفسُه بأنه سيقال عليه:« إنه قد استعبطوه، ولا كرامة عنده، وإنه قد صار فيهم مثال السخرية ومثال الاستهزاء وقلة القيمة... وكذا وكذا» إذ قد أُهينَ وأُهدرتْ كرامتُه.. إلى آخر ما نسمع من هذه الألفاظ التي لا قيمة لها في الآخرة؛ بل الحقيقة كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

النبي ﷺ لم يرد عليه؛ بل لـمَّا مات ، صلَّى عليه النبيُّ ﷺ حتى نهاه اللهُ جلَّ وعلا على أن يصلي على هؤلاء المنافقين كما قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٨٤].

إن المثل الذي ضربه النبي ﷺ في الحلم على رأس النفاق فيه الأسوة لأهل الإيمان في عدة معان:

الأول: أنه ما كان أحدٌ أكرمَ على الله تعالى من النبي ﷺ، ورغم ذلك عامل هذا المنافق بخلق الحلم. فلا يَدَّعِي الكثير - مما لا قيمة لهم اليوم- لأنفسهم الكرامةَ والعزة وعدم المهانة والانتقام لأنفسهم، وأنه ليس أحدٌ أحسنَ من أحد ولا أفضلَ من أحد؛ فإذا قاطَعَكَ قاطِعْهُ.. وإذا شتمكَ فاشتُمْه..، ثم يقول له: ألم أفعل لك كذا وكذا؟!.. ولن أفعل لك كذا وكذا، ولن أعطيك كذا.. إلخ! وهذه الأخلاق السيئة.

الثاني: أن التعامل بين المؤمنين بعضهم البعض بالأخلاق السيئة، عَطَّل على الناس قلوبَهم وأعمالهم لله تعالى، وشوَّش إخلاصَهم لله جلَّ وعلا. فبعد أن يتصادَق الناسُ قد يحدث مِن بعضهم ما يمكن أن يحدث من أخلاقٍ سيئة، فتنقلب هذه الأُخوَّة - التي كانت في ظاهرها لله - تنقلب لغير الله، وتنقلب غضبًا للنفس، وتنقلب إلى قطيعة وبغضاء وشحناء، رغم أنهم مؤمنون! فإذا كان هذا هو حلمه ﷺ مع المنافق، فأهل الإيمان أولى بالحلم بينهم وبين بعضهم البعض.

الثالث: أن النبي ﷺ قد أتى ليعلم الناس ويرشدهم ويربيهم وليأخذ بأيديهم إلى الله تعالى ويعلمهم طريقَ الآخرة ويخرجهم من حظوظ النفس وعبادة الشيطان وعبادة الهوى إلى عبادة الله جل وعلا، فعلى من يتصدى لأمر الدعوة أن يتحقق بأخلاق النبوة، لا سيما الحلم، حتى مع المنافق لما في ذلك من المصلحة الشرعية التي بينها النبي ﷺ في قوله: « **دَعْهُ؛ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ** » وهي المصلحة التي يجب أن يحسب الدعاة والعلماء لها حسابها هذه الأيام .



ثالثا: إلى متى يحلم المرء؟

قد يقول القائل بعد هذا الكلام: إلى متى يَحْلُم المرء؟ إلى متى يتسع خلقه وصدره لهذا الكلام؟ إلى متى يكون ذلك؟

كان النبي ﷺ شديد الحلم، ولم يؤثَرْ عنه ﷺ هفوة في هذه المسألة، ولم يُحفظ عنه ذَلة فيها ﷺ. وإنْ كان يقول القائل: «اتَّقِ غضبَ الحليم»؛ يعني: الحليمُ يحلُم ويحلُم ويحلُم، فإذا ما انتهى حِلمُه انفجرَ وفعلَ ما فعلَ!! لكن النبيّ ﷺ على عكس ذلك؛ كما جاء في القصص التالي المبين لطول حلمه ﷺ:

المثل الأول: سعةُ وطولُ حِلْمِه صلى الله عليه وسلم مع اليهودي الذي قاضاه قبل حلول الأجل

جاء زيدُ بن سَعْنَة وكان حبرًا من أحبار اليهود، وكان قد استدان منه النبيُّ ﷺ شيئًا ولم يأتِ وقتُ سداد الدَّيْن، فأخذ زيدٌ النبيَّ ﷺ من تلابيبه، يعني: أمسك بملابسه ﷺ كلِّها وهو يجذبه ويقول له: «**إنكم يا بني عبد المطلب أصحابُ مُطْل**»، يعني: جاء هذا اليهودي قبل ثلاثة أيامٍ من دَيْنه وأخذ يجذب النبيَّ ﷺ ليقول له: أين دَيْني؟! **وإنكم قوم مُطْل!**

وجاء عمرُ ليقتله، فقال النبيُّ ﷺ: «يا عمر! كنا - يعني نحن وهو - أحوجَ إلى غير ذلك منك، يعني: كنا في احتياج إلى خلق غير ذلك منك: «**أن تأمرني بحسن القضاء وأن تأمره بحسن التقاضي**»، فتأمرني بأن أعطيه حقه، وتأمره هو عندما يطلب حقَّه ألا يطلبه على هذا النحو.

وقال النبيُّ ﷺ لليهوديّ: «**بقي من أجْلِك ثلاثٌ**»، فلا يحق لك المطالبة باستيفاء دينك قبلها «وقد تَعَجَّلْتَ» وليس هذا من حقك.. ثم قال لعمر رضي الله عنه:

«أوفِهِ» يعني: أن يُوفِيَه دينَه، وأن يزيده ثلاثين صاعًا لِمَا روَّعه عمرُ ﷺ.

بعد هذا الموقف أسلم هذا الحبر[1] من أحبار اليهود وحَسُنَ إسلامُه، وكان من أعلمِهم وأكثرِهم مالًا، وشهد مع النبي ﷺ مشاهد كثيرة، ومات مرجِعَهُ من تبوك مع النبي ﷺ، وروى قصة إسلامه لعبد الله بن سلام، قال: «**لقد بقي في النبي ﷺ خَصْلتانِ لم أتحققها**

---

(١) انظر ترجمتَه في الإصابة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البرّ رحمهما الله تعالى، وفي الإصابة أنه «شهدَ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم مشاهدَ كثيرةً» رضي الله عنه.

من نبوته صلوات الله وسلامه عليه: أنه يسبق حِلمُه جهلَه، وأنه لا يزيده جهلُ الجاهل إلا حِلمًا»[1].

---

(١) أخرج هذه القصة ابنُ حبان في صحيحه (١/٥٢٤) وغيرُه، قال الحافظ في الإصابة ما حاصله: روى قصةَ إسلامِه - أي إسلام زيد بن سعنة رضي الله عنه- الطبرانيُ وابنُ حبان والحاكم وأبو الشيخ في كتاب «أخلاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم» .. ورجالُ الإسناد مؤَثقُون، وقد صرَّح الوليد فيه بالتحديث ومداره على محمد بن أبي السري الراوي له عن الوليد؛ وثَّقَه ابنُ معين وليَّنه أبو حاتم، وقال بن عدي: (محمد كثير الغلط) والله أعلم. انتهى مختصرًا.

فالخَصلة[1] الأُولى التي كان يبحث عنها زيدٌ رضي الله عنه : أنه يسبق حلمُه جهلَه، فإن جَهِل عليه جاهل أو شتمه أو جَبَذَهُ أو أساء إليه هذه الإساءة التي أساءها إليه، يسبق حلمُه جهلَه.

(١) (الخَصْلَة) خُلُقٌ في الإنسان يكون فضيلةً أو رذيلةً، و في الحديث : «كانت فيه خصلة من خصال النفاق» البخاري ومسلم، انتهى من «المعجم الوسيط ». وفي مسلم أنه ﷺ قال لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحلم والأناة ».

لا أن يسبق جهلُه حلمَه كما نحن الآن! ثم بعد ذلك يعتذر المعتَذِر مِنَّا يقول: «معذرةً لقد خرجت عن شعوري، فقد فعل بي وفعل.. إلخ».. كلا؛ لم يكن النبيُّ ﷺ كذلك؛ بل كان لا يسبق جهلُه حلمَه، أي: لا يسبق ردُّه سفاهةَ الناس.

بل إنه ﷺ زاد حلمه عن ذلك، فلما قام عمر رضي الله عنه للحبر غاضبًا، وكان غضب عمر رضي الله عنه لله تعالى في مَحلِّه، إذا برسول الله ﷺ يقول لعمر: «أن تأمرني بحُسن القضاء، وأن تأمره بحسن التقاضي»، وانظر إلى ما في هذه

النصيحة من الحلم والتواضع، فهو ﷺ يقول لعمر رضي الله عنه أن يأمر النبيَّ ﷺ بحسن القضاء!

والخصلة الثانية: وهي لمن يسأل: إلى متى يحلم المرء؟ وإلى متى ينتهك الناسُ كرامته؟ وإلى متى يبقى ذليلًا مهانًا؟ **أنه لا تزيده ﷺ سفاهةُ السفيه ولا يزيده جهلُ الجاهل إلا حلمًا** ليس كما هي حال أحدِنا اليوم: أنه يصبر ويصبر ويحلُم ويحلُم.. ثم ينفجر، كلا؛ كان صلى الله عليه وسلم لا يزيده ذلك إلا حلمًا؛ كلما ازداد عليه السفيهُ سفاهةً ازداد عليه ﷺ حِلمًا، وذلك ليقينه ﷺ أن الذِّلة في معصية الله، وأن العزة في طاعته تعالى.

المثل الثاني: طول الحلم مع من أساء إليك

ويبين ذلك هذا الحديث: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ لِى قَرَابَةً؛ أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِى، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ - أي تضع في أفواههم الرمادَ الحارَ المتبقي من النار والإيقاد- وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»(١)

(١) أخرجه مسلمٌ في صحيحه (٢٥٥٨)

فهذا الذي يقول سيصير «ملطشة»، وتضيع كرامته، وسيتمادى الناس لو حلم عليهم انظر ماذا قال ﷺ: « **وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ** » أي نصير عليهم، يعني: أنك طالما كنتَ على هذه الأخلاق فإن الله تعالى هو ناصِرُكَ، هو ظهيرك.. هو مؤيدك، فكيف بمن يؤيده ربُّه وينصره ربه، أيكون نصرُه كمَن ينصر نفسَه؟! إنْ تركه الله تعالى لنفسه خَذَلَهُ، وإن تولى هو ﷻ نَصرَهُ فأَكْرِمْ به من امرئٍ قد امتلأ كرامةً من الله وعنايةً ونصرًا وتأييدًا طالما كان على هذا الحال!

ويبين ذلك أيضًا هذه القصة المشهورة، فقد كان النبي ﷺ جالسًا وأبو بكر ﷺ وشخص يسب أبا بكر وهو ساكت ﷺ، حتى إذا أطال الرجلُ في سِباب أبي بكر، ردَّ عليه أبو بكر! فقام النبي ﷺ مغضبًا. قال له أبو بكر ﷺ: «**بأبي أنت وأمي يا رسول الله!**». قال النبي ﷺ: «**قيض الله تعالى لك ملكًا ما يزال يرد - أو لا يزال يرد - عنك، حتى إذا رددت عن نفسك ذهب المَلَك وجاء الشيطان، وما كنتُ أجلس إذا جاء الشيطان**».



المثل الثالث: سعةُ وطولُ حِلْمِه ﷺ مع الخارجيِّ الذي قال للنبي "اعدِل. فإنك لم تعدِل"

ونشير سريعًا إلى هذا الحديث لنرى حِلمَ وسعة صدر النبي ﷺ وعدم ردِّ الإساءة وخُلُقَه المشرَّف ﷺ.

فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ بِالْجِعِرَّانَةِ وَهُوَ يَقْسِمُ التِّبْرَ وَالْغَنَائِمَ وَهُوَ فِى حِجْرِ بِلاَلٍ فقَالَ رَجُلٌ: "**اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ**". فَقَالَ «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ بَعْدِى إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟!**». فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِى يَا رَسُولَ الله حَتَّى أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ «**إِنَّ هَذَا فِى أَصْحَابٍ – أَوْ: أُصَيْحَابٍ**

- لَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ »[1].

ونعلّق على بعض ألفاظ روايات هذا الحديث حيث أن للحديث روايات كثيرة:

جاء ذلك الأعرابيُّ الجِلف[1] ليقول للنبي ﷺ وهو يَقْسِم بعضَ الغنائم: « اعْدِلْ يا مُحَمَّدُ.. فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ ».

(١) أخرجه ابن ماجه في سُنَنِه (١٧٢)، وصحَّحه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه (١٤٢)، وهذا الحديث في الخوارج وله ألفاظٌ وروايات كثيرة؛ سيأتي ذكْرُ بعضها إن شاء الله تعالى في الشرح أعلاه.

لم يزد النبيُّ ﷺ على أن قال: « **وَيْلَكَ ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ! قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ** »[٢] يعني خبتَ أنتَ، وخسرتَ أنت كذلك أَيّها التَّابعُ إِذَا كُنْتُ لَا أَعْدِل لِكَوْنك تَابِعًا وَمُقْتَدِيًا بِمَنْ لَا يَعْدِل، وفي روايةٍ أخرى أيضًا: « .. **خِبْتُ وَخَسِرْتُ** .. » بتاء المتكلِّم المضمومة، يعني: خبتُ أنا وخسرتُ يعني : إذا لم أعدل

---

(١) وهو: «ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهْوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ» كما في رواية صحيحي البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤) من رواية أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه.

(٢) انظر رواية: صحيح البخاري (٣٦١٠)

أخيبُ وأخسرُ ﷺ. وهو - أي قولُه ﷺ ذاك "خبتُ وخسرتُ"- معلَّقٌ بعدم العدل؛ وهو معصوم منه ﷺ[1]. وقولُه «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ بَعْدِى إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟!**» يعني: مَنْ أَوْلَى الناس في الدنيا بالعدل منّي؟!

وفي روايةٍ قال له: «**ويْحَكَ؛ فمَنْ يعدلُ إذا لم أعدل؟!**»[2] : «**وَيْحَك**» هذه كلمةٌ تقال على سبيل

---

(١) أشار الإمام النووي في شرح مسلم إلى تلك الروايتَين في شرح ذلك الحديث فقال: «رُوِيَ بِفَتْحِ التَّاء فِي (خِبْتَ وَخَسِرْتَ) وَبِضَمِّهِمَا فِيهِمَا، .. وَالْفَتْح أَشْهَرُ . وَاَللَّهُ أَعْلَم.» انتهى باختصار ، شرح حديث رقم (١٠٦٣).

(٢) أخرجها الحميدي في مسنده (١٣٢٢).

الترحم، بخلاف «ويلك» التي تقال على سبيل الهَلَكة.

فترحم به لجهله ثم أرشده إلى الحق في هذه المسألة، قائلًا له: «من يعدل إذا لم أعدل؟! خبتُ وخسرتُ إذن إذا لم أعدل». بل هو ﷺ سيد ولد آدم في كل أخلاقه، ولن يزيده ذلك على أن قال ﷺ : «**إذا لم أعدل من يعدلُ؟**».

ولم يكن ذلك مثار ردٍّ منه ﷺ برغم قولِ خالد بن الوليد ﷺ: «**دعني أضرب عنقه**»، قال ﷺ: «**لا**»[1].

---

(١) قال النووي في شرح مسلم: «قَوْله : "فَقَالَ عُمَر بْن الْخَطَّاب : دَعْنِي يَا رَسُول الله فَأَقْتُل هَذَا الْمُنَافِق؟"، وَفِي رِوَايَات أُخَر:" أَنَّ خَالِد بْن الْوَلِيد اِسْتَأْذَنَ فِي قَتْله" لَيْسَ فِيهِمَا تَعَارُض،

المثل الرابع: طول حلمه ﷺ مع أبي سفيان

وهو ما نختتم به هذه الأمثلة، فقد جيء إلى النبي ﷺ بأبي سفيان في فتح مكة، وهو حينئذ رئيس قريش، وكان هو الذي حزَّب الأحزاب للنبي ﷺ وكان سببًا في قتل حمزة أسد الله تعالى وقتل سبعون من المسلمين في أُحد، وقد مُثِّلَ بهم وقُطِّعت آذانهم وآنافهم رضوان الله عليهم، فجيء به للنبي ﷺ، ومَنْ مثلُه حينئذ ليس له عهد ولا أمان، فهو حقيقٌ أن يُقتل فورًا، ومع ذلك يقول

بَلْ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا اِسْتَأْذَنَ فِيهِ» انتهى، شرح حديث رقم (١٠٦٣).

له النبي ﷺ : «أما آن لك أن تشهد ألا إله إلا الله؟» قال: «نعم، أشهد ألا إله إلا الله». قال: «أما آن لك أن تشهد أني رسول الله؟». قال: «في النفس من ذلك شيء» ! انظر إلى حلم النبي ﷺ وهو في هذا الموقف قد فتحت له مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا، وكان غنيًا عن إسلام أبي سفيان - الذي قضى أغلب عمرَه يقاتل النبي ﷺ، بل كان يمكنه أن يقتص منه لما كان سببًا فيه من إيذاء وتعذيب وقتال للمسلمين! إذا بأبي سفيان يقول الكلمة

المشهورة للنبي ﷺ: «**بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؛ مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ!**»[1].

الخلاصة، أنه كان ﷺ مهما فُعِلَ فيه يحلمُ! يحلم مع المسلمين والمنافقين واليهود والخوارج وغير ذلك، وهو ما ينبغي أن يتأسّى به المرءُ المسلم حتى لو امتلأ المرء غيظًا وضيقًا وكمدًا ..فهذا هو الامتحان الذي إمَّا أن

---

(١) أخرجه الطبراني بنحوه في الكبير وقال الهيثمي في المجمع: «رجاله رجال الصحيح» ، وأخرجه أيضا الطحاويُّ في مشكل الآثار وصحّحه، كما صحّحه الحافظ في المطالب العالية (٤/٤١٨)

يُظْهِر فيه المرءُ محبتَه للنبي ﷺ وتخلُّقه بخُلقه، أو أن يُظهِر أنه لا يزال يتبع نزغَ الشيطان واتباع النفس والهوى، و لا يدفع السيئة بالحسنة .

رابعًا : محبةُ اللهِ ورسولِه ﷺ لخُلق الحِلم

فقد كان حلمه ﷺ من الصفات التي منَّ الله تعالى عليه بها؛ إذ الحلم من الصفات التي يحبها الله تعالى حيث يقول النبي ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ « إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ

يُحِبُّهُمَا اللهُ؛ الحِلْمُ وَالأَنَاةُ »[1] ،وفي روايةٍ أن الأشجَّ قَالَ: **«يَا رَسُولَ الله! أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا، أَمِ اللهُ جَبَلَنِى عَلَيْهِمَا؟»** قَالَ: **«بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا»** . قَالَ:**« الْحَمْدُ لله الَّذِى جَبَلَنِى عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ»**[2] ؛ فهاتان خَصلتان يحبهما الله ورسوله ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥) من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) أخرج هذه الروايةَ أبو داود (٥٢٢٥) من رواية الصحابي زارع بن عامر رضي الله عنه وكان مِن بيْن وفدِ عبد القيس الذي قدم على النبي ﷺ مع الأشجّ، وصحَّحها الألباني في صحيح أبي داود.

خامسًا : الحِلْمُ ومقاومةُ نزغ الشيطان

وقد بيَّنت الآيات الكريمات هذا المعنى، وهو أنه سيأتي الشيطان وستنزغ النفس للمرء: كيف يترك حقه؟ وكيف لا يرد الإساءة بالإساءة؟ وكيف لا يرد الشتيمة بالشتيمة؟ وكيف يتغاضى؟ وكيف يُنقص من كرامتِهِ؟ وكيف يُقال عليه مُهان لا يساوي شيئًا؟ وأنه صار «مَلْطَشَةً» للخَلْق، وأنه سوف يتمادى الناسُ في أن يُسيئوا إليه، أو غير ذلك.

فما من آية من آيات الدفع بالحسنة إلا وسيأتي النزغ من الشيطان ليمنع ذلك، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِى**

ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٧]. وهي الآية الأولى.

والآية الثانية: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

والآية الثالثة التي لا رابع لها في سياق هذه الآيات: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨].

والمعنى في هذه الآيات أنه لـمَّا قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لم يقل: «ادفع بالحسنة» فقط، وكان سياق الآيات كذلك: لا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بحسنة. لكن الآيات قالت: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، يعني: "ادفع بأحسن الحسنة" وعاقبة ذلك ستكون كما قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

ولأن الشيطان والنفس لن يتركاك لتفعل ذلك، وسينزغ الشيطان لك بأنك قد صرتَ مُهانًا.. وكرامتك.. واعتبارك.. ويجب أن ترد.. وأنه ليس أحدٌ أفضل من أحد، وتمتلئ نفسك غيظًا وكمدًا... وأنك ستكون «مَلْطَشة» كما يُقال، إذا بالله تعالى يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ يعني ينزغكَ الشيطانُ حتى لا تدفع السيئةَ بالحسنة، وألا تدفع السيئةَ بأحسن الحسنة، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، استعذْ بالله! وكما قال في الآيتَينِ الأولى والثانية، أما الآية الثالثة فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨].

لذا ينبغي على أهل الإيمان الحذر من هذه الأخلاق السيئة التي مردها إلى النفس، والشيطان، والهوى؛ ليس مردها إلى أخلاق النبي ﷺ الذي كان لا يزيده جهلُ الجاهل عليه إلا حلمًا، ولا مردها إلى صفات الحق سبحانه وتعالى «الحليم».

واعلم أنه كذلك إذا ما صرتَ إلى هذه الحال التي لا تحلم فيها على الناس، فإنك معرَّض أن تخرج عن حلم

الله تعالى، وأن يعاقبك الله تعالى، وأن يعاجِلك بالعقوبة. فالله تعالى يحلم على خلقه: يكفرون به ويجعلون له ندًّا وينادون له ولدًا ﷻ، ومع ذلك يُغْنِيهم ويرزقهم حلمًا بهم، ينتظر توبتهم أو إعذارًا لهم لتنقطع حُجَّتُهم، أو لحكمةٍ من حِكَمِه ﷻ البالغة!

والمسلمون فيما بينهم ينبغي أن يُحققوا هذا الخُلُق، حتى يخرجوا من عبادة أنفسهم ومن غضبهم لها ومن انتقامهم لها ومن طاعتهم للشيطان ونزغِه ليتخلقوا بخلق النبي ﷺ.



سادسًا: لا يكون الصلاحُ إلَّا بالحِلم

واعلم أنه لا يتفق عدمُ الحلمِ والصلاحُ، فلا يكون المرء صالحًا إلا أن يكون حليمًا. وانظر إلى هذه الآية التي تبين هذا المعنى كما قال تعالى لما دَعَى إبراهيمُ ربَّه جل وعلا يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠١].

فلما دعا أن يرزقه الله تعالى ولدًا صالحًا، كانت إجابة الله تعالى أن رَزَقَهُ ولدًا حليمًا، وكأنه لا يكون الصلاح إلا بالحلم، وأن أعظم مآثر الصلاح أن يكون المرءُ حليمًا؛ فلا يحلم المرء إلا أن يكون صالحًا، أما مَن لم

يكن صالحًا فكيف يكون حليمًا؟ ومَن يتبع نَزْغَ الشيطان والهوى وكرامة النفس والدنيا ومخالفة خُلُق النبي ﷺ أنَّى يدخل إلى معنى الصلاح؟! وأنَّى يكون في حيز الحُلماء الذين أحبهم اللهُ تعالى وأحبهم النبيُّ ﷺ كما ذكرنا في حديث الأشجِّ رضي الله عنه.

❁❁❁

سابعًا: كيف يَصير المرءُ حليمًا؟

والسؤال المهم الآن: كيف يصير المرء حليمًا، وهو لا يستطيع أن يصبر على أخلاق الناس، وأعصابه تنهار، ولا يستطيع أن يصبر على أن يُشتم أو أن يُهان أو أن

تُصاب كرامته بشيء، وأنه لا بد أن يرد، وأن يتبع الشيطان، وأن يأخذ بنزغ الشيطان ؟!

يقول النبيُّ ﷺ: «**إنما الحِلْمُ بالتَّحَلُّمِ** »[1] ومعناه: أن يجاهد المرء نفسه على أنه كلما بَدَرَ سببٌ من أسباب الغيظ والغضب ومعاجلة العقوبة وعدم التريث والطيشِ والسفهِ، أن يجاهد نفسه على كَتْم ذلك لله تعالى، وأن يوقف نفسه، وأن يُلْجِمها بلجام الشرع، أخذًا بوصية

---

(١) أخرجه الخطيبُ البغدادي في تاريخ بغداد، باب الزاي، ذِكر من اسمه «سعد»، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢٨)

النبي ﷺ: « **لاَ تَغْضَبْ .. لاَ تَغْضَبْ.. لاَ تَغْضَبْ** »[1]، وأن يستعمل حينئذٍ كل ما يكون من أسباب مَنْع الغضب ومن أسباب الدفاع عن النفس والانتقام لها من تذكر الله تعالى وثوابه وعقابه، وأن يجلس إن كان واقفًا أو يضجع إن كان جالسًا، وأن يُحلِّم نفسه، وكلما أساء إليه أحدٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦) في صحيحه، ولفظُه عنده: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: أَوْصِنِي . قَالَ «**لاَ تَغْضَبْ**» . فَرَدَّدَ مِرَاراً ، قَالَ «**لاَ تَغْضَبْ**» .

يتأسَّى بالنبي ﷺ كما رأينا من قولِه وفِعْلِه، ومن تبسُّمه وإرشادِه، ومن تعليمِه وإبعاد الشيطان.

والنبيُّ ﷺ لا شك أنه أعلى خَلْقِ الله تعالى في هذه الحال لأنه كما قال المولى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]. فتَرْكُ الحلم ورد السيئة بالسيئة ومكافأة الشر بالشر إنما كل ذلك مردُّه لنزغ الشيطان واتباع النفس، وليس ذلك للنبي ﷺ، فهو أول مَن تأمره نفسُه بالطاعة؛ إذ هو صاحب النفس المطمئنة ﷺ، ومن كان كذلك فليس للشيطان عليه سبيل.

وأهل الإيمان مطالبون بمجاهدة النفس على التحلُّم، ومحاولة التطبع بهذا الخلق ومجاهدة النفس على ذلك، وليعلم المرء أنه سيأتيه الاختبار، وقد يسقط في الامتحان الأول والثاني والثالث، ولكن لا بد أن يُجاهد، وأن يُثابر، وأن يُعافر - كما يقولون - حتى تستقيم له نفسُه، وحتى يستقيم له خُلُقه، وحتى يأخذ بحظه من أسم الله تعالى «الحليم»، ويأخذ كذلك بحظه من متابعة النبي ﷺ ومحبته، وعلمًا لما أشرنا إليه بأنه لا يستقيم الصلاح مع عدم الحلم، وأنه لا يكون صالحًا إلا أن يكون حليمًا.

وليعلم المرء كذلك أن الحلم درجات، يحاول المرء أن يجاهد فيه نفسَه درجةً درجةً، وإن رأى الله تعالى منه صدقًا وإخلاصًا وإقبالًا عليه ومحبةً لصفات الرب وتعلقًا بها، ومحبةً للنبي ﷺ والتزامَ سُنته واتباعَ هَدْيه ﷺ في العسر واليسر والـمَنْشَط والـمَكْره؛ أي: فيما يُحب المرءُ ويكره، فإن الله تبارك وتعالى سيفتح عليه، ويشرح له صدره، خاصة إذا وقف يتضرع إلى الله تعالى أن يرزقه هذا الخُلق، إذا ما وقف لله تعالى يشكو نفسه لربه مما هو فيه من سوء الأخلاق، ومما هو فيه من بُعدِه عن محبة النبي ﷺ والتخلق بصفاته الحميدة وشمائله الحسنة ﷺ

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]. يوشك أن يمنَّ عليه ربه بالتأسي برسول الله ﷺ في الخلق الحسن.

ولكن كما بينت الآيات فإن هذه الأسوة ليست لكل أحد، وإنما هي لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا. وأنت لا ترضى لنفسك أن تكون أقل من ذلك، ولا ترضى لنفسك ألا تكون من هؤلاء بخروجك عن تَأَسِّيك بالنبي ﷺ واقتدائك به.

وأخيرًا، قد يسأل السائل قائلا: **ألا يجوز لي أن آخذ حقي ممن ظلمني وأساء إليَّ؟ وهل لي من حق في القصاص منه؟ والإجابة: نعم**، يجوز ذلك وهو ما تؤيده أحكام الشرع ونصوصه، وقد ورد في قصة جبذ النبي ﷺ التي ذكرناها في قوله للرجل نعم أعطيك حقك « **حَتَّى تَقِيدَنِى مِنْ جَبْذَتِكَ الَّتِى جَبَذْتَنِى** »، فدلت على جواز ذلك وإن لم يفعلها ﷺ لأنه لا يكافئ السيئة بالسيئة، بل هو صاحب الخلق الأعلى ﷺ.

ومن نصوص الشرع التي دلت على ما سبق قوله تعالى: ﴿ **وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ** ﴾ [الشورى:٤٠]. ثم بين بعد

ذلك أن من انتصر بعد ظلمه فليس عليه حرج ، أما الخلق الحسن فهو الصبر والعفو عند القدرة ، لذا قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣] لك إذن أيها السائل أن تقاضي من أساء إليك أو أن تتحاكم لمن يرد إليك حقك، أما الأجلّ فهو العفو والصفح.

وكذلك في قول النبي ﷺ للأعرابي الذي قال له : اعدل، فقال له ﷺ : ويحك أو ويلك - الروايتان بحسب السياق – فإن الأولى تدل على أن للمربي الفاضل

عالمًا أو داعيًا أن يستعمل الشفقة والرحمة، أو الزجر والشدة كلٌ في موضعه.

❁❁❁

إن التحقق بخلق الحلم مما يجب أن يشيع بين أهل الإيمان فيبدءوا في التحقق به، فمَن كان بينه وبين أخيه مظلمةٌ في مثل ذلك فليتحلله اليوم كما قال النبي ﷺ قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، لتكون بداية له في التخلق بهذا الخلق، حتى تشيع رحمة الله تعالى بين المؤمنين، ويرتفع البلاء الذي قد نزل بسبب أخلاقهم وسُلوكهم، وبسبب بُعدهم وتَفريطهم، وإذا لم يكونوا هم السببَ

الذي يرفع الله بهم هذا البلاءَ؛ فبِمَنْ يرفع اللهُ تعالى هذا البلاءَ ؟! ومن الذي يتحملُ هذه المسئوليةَ؟ إنما هي مسئولية المؤمنين المتقين. فإن فرَّطوا فيها فرطوا في حق أنفسهم.. وفي حق رسولهم.. وفي حق ربهم.. وفي حق بقية إخوانهم، وينتظرون - والعياذ بالله تعالى - أن يَحِلَّ بهم ما حل بغيرهم.

المسارعة إذن في التخلُّق بالحلم؛ إذْ ما أحوجَنا اليوم إلى هذا الخُلق لتَحِلَّ به الرحمةُ، ويرتفع به الشقاق، وتزول به البغضاء والقطيعة، وليزول به الحقد والغل الذي تمتلئ به قلوبُ الناس حين لا يَقْدِرون أن يردوا

الصاع بالصاع أو بالصاعين، وأن يكون لهم - كما أشرنا - القدوة الحسنة في النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

